مجلة اللغة العربية وآدابها
السنة التاسعة، العدد الرابع، شتاء ١٤٣٤هـ
صفحة ٥٥-٧٣

منهجية النقد الأدبي عند الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام

سيد حسين سيدي [١]، أحمد خنيفي‌زاده [٢]*

١. أستاذ اللغة العربية وآدابها بجامعة الفردوسي- مشهد
٢. طالب دكتوراه في فرع اللغة العربية وآدابها بجامعة الفردوسي- مشهد

(تاريخ الاستلام: ١٤٣٤/٧/٣٠ ؛ تاريخ القبول: ١٤٣٥/١٢/٧)

ملخّص المقال

هذا المقال يناقش أهم المواقف النقدية لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب ويدرس ما روي عن الإمام عليه السلام من أقوال في النقد الأدبي التي لا تتجاوز عدة ملاحظات، لكنها تكشف لنا عن ذوق الإمام عليه السلام الأدبي الرفيع وذكائه المتوقد وعلمه الواسع ونظرته العميقة في الشعر والأدب. إن هذه الملاحظات تحمل في طياتها الكثير عن المناهج النقد الأدبي وذلك في عصر لم يكن أحد يملك معايير محددة للنقد.

الكلمات الرئيسة

الإمام الإمام علي عليه السلام، النقد الأدبي، تاريخ النقد، مناهج النقد، النظريات الأدبية.

* الكاتب المسؤول الهاتف: ٠٩١٦٦٠٧٧٧٢٠ Email: ahmadkhanafi@gmail.com

مقدمة

من يطالع النقد الأدبي ويرى ما يروى عن الإمام من أقوال حول الأدب ونقد الشعر، لسرعان ما يفهم أنّ الإمام علي ﷺ لم يعطَ حقّه في الأدب العربي عامة وفي النقد الأبي خاصة. إذ طالما لم يهتمّ النقّاد ومؤلفوا الكتب النقدية بكلام الإمام ومواقفه وملاحظاته النقدية حقّ الاهتمام، وكأنّهم يهملونها ولا يرون فيها ما يستحقّ الدراسة والتبيين.

إنّ نقد الإمام وآراءه النقدية على درجة عالية من القيمة وإنها تستحقّ أن تُدرَس وأن تُشرَح وأن تُعرَّف إلى الأدباء. إنها قد حملت في طياتها مع شدّة إيجاز الإمام علي ﷺ في كلامه، ما لا يحمله غيرها من الكلام في النقد والأدب، إنّ الإمام ﷺ هو السّبّاق في مجال النقد، فقد سبق كلّ الأدباء والشعراء في تبيين المناهج النقدية وكيفية الحكم على الشعر والشعراء.

إنّ في نقد الإمام علي ﷺ من الظرافة والدّقة ما يثير إعجاب أي دارس للأدب؛ لأن المناهج النقدية هي من عمل النقد الأدبي في العصر الحديث. لكنّ الإمام كان أعلم الخلق بطرائق الكلام وأذكاهم في فهم الشعر، وهذا ما أهّله أن يتقدّم بنقده وأدبه على العالمين طرّاً.

سابقة البحث

كثير هم من تكلِموا عن النقد الأدبي عند الإمام علي ﷺ وعن ملاحظاته النقديّة، لكنّ أكثرهم اكتفى بالنقل دون دراستها والتعمّق فيها. ذكرها أكثر النقّاد والمؤلفين في إطار حركة لعقلية النقدية عند العرب من الذوق والسليقة إلى شيء قليل من العقلية، وليس كمنهجية نقدية لهل قواعدها وأصولها.

أشار عباس محمود العقّاد في كتابه «عبقرية علي» إشارة خاطفة إلى منهجية النقد الأدبي عند الإمام علي ﷺ وقال عنه كما ذكرنا في المقال: إنه أول تقسيم للأدب على أساس المذاهب الأدبية. وكذلك تكلّم داود سلوم في كتابه «مقالات في النقد والأدب» عن أخذ فكرة الموازنة عند الآمدي من إحدى ملاحظات الإمام علي ﷺ. ولكن لم نعهد أحداً حاول أن يدرس منهجية النقد الأدبي في تلك الملاحظات كما حاولنا أن نفعل نحن.

النقد الأدبي عند الإمام علي ﷺ

سئل الإمام علي ﷺ: من أشعر الشعراء؟ إنّه سؤال كان شائعاً ومتداولاً في العصر الجاهلي والعصر الإسلامي إذ كانت العرب تُصّر على أن تفضّل شاعراً على جميع الشعراء فتعتبره أشعر الشعراء وأفضلهم. وقد يكون ذلك لسذاجة في فكرهم النقدّي؛ لأنّ الفكر النقدّي غير المتطوّر لا يستطيع أن يمايز بين الشعراء إلاّ بأفضلية أحدهم على الآخرين. كما إنّه لا يستطيع أن يقول بالأفضلية لعدّة شعراء ولايستطيع أن يعترف بالفضل لمجموعة دون أفضلية أحدهم عليهم.

إذن إنّ السؤال عن هذا النوع من التفضيل كان شائعاً آنذاك. لكن الإمام علي ﷺ أجابهم على سؤالهم بطريقة تختلف تماماً عمّا ألِفوه وتعوّدوه من أمر نقّادهم وحكامهم في الأدب.

إنّ الإمام ﷺ رفض أن يفضّل أحداً على آخر دون تبيين بعض الملاحظات القيمة التي تدل على أنّه يعرف أموراً في النقد لا تعرفها العرب من قبله إذ قال في ردّه على السؤال: «إنّ القوم لم يجروا في حلبة واحدة تُعرَف الغاية عند قصبتها، فإن كان ولابدّ فالملك الظلّيل»، يريد به امرأ القيس (صالح، ١٤٢٢، ص٦٩٨).

فكما نرى أنّ الإمام ﷺ يفضّل امرأ القيس على غيره مكرها؛ لأنّه يقول فإن كان ولابدّ فالملك الضلّيل، ممّا يدلّ على أنّ السائل كان مصرّاً للحصول على جوابٍ يتلائم مع عادات العرب في النقد آنذاك. إنّ الإمام يتكلم عن استحالة الحكم على أفضلية أحد دون ملاحظة فنّه والنظر في مذهبه الأدبي؛ إذ إنّه يشترط أن تكون مباراتهم في حلبة واحدة. ويتكلم أيضاً لأوّل مرة في الأدب العربي عن الغاية في الأدب. يتصوّر الإمام ﷺ للشعر والأدب غاية ولا يحبّذ للناقد أن ينقد أدباً ويحكم عليه دون ملاحظة الغايات الأدبية.

إنّ في هذا الكلام وفي غيره ممّا يروى عن الامام، من المناهج والنظريات والملاحظات ما يعجز الفكر عن فهمها واستقصائها تماماً ولا يستطيع إحصائها. وسنتكلم عنها إن شاء الله بوضوح وشفافية تامّة.

ويروى أيضاً عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كلام في هذا المعنى، بعد خصومة حادّة بين جنده حول أشعر الشعراء؛ إذ قال: «كل شعرائكم محسن، ولو جمعهم زمان واحد وغاية

واحدة ومذهب واحد في القول لعلمنا أيّهم أسبق إلى ذلك. وكلهم قد أصاب الذي أراد وأحسن فيه، وإن يكن أحدهم أفضل، فالذي لم يقل عن رغبة ولا رهبة امرؤ القيس بن حجر. كان أصحهم بادرة وأجودهم نادرة» (قصاب، ٢٠٠٥، ص٥٨؛ نقلاً عن الرسالة الشافية لعبد القاهر، ص١٣١). ويروى أنّه قال «لأنّه أحسنهم نادرة وأسبقهم بادرة» (عتيق، تاريخالنقد الأدبي عند العرب، ص٨٢؛ نقلاً عن: العمدة، ج١، ص٢٧-٢٨). فنرى الإمام يتكلم عن الزمان والغاية والمذهب وإجادة جميع شعراء القوم وعن عنصر العاطفة والاحساس وصدقه حيث قال لم يقل عن رغبة ولا رهبة. كما يتكلم عن سبق امرئ القيس في بعض معانيه وتجديده فيها ويروى أيضاً عنالإمام أنّه قال متحدّثاً عن فنّ الشعر:«الشعر ميزان القول»(الحسين، ص٤٧).

من المؤسف جداً أن نرى بعض الكتّاب يفسّر هذه الأقوال بسطحية تامّة وكأنّها لا تحمل أي جديد وأي معنى يتسحق الإشارة إليه. لكنّنا سنتحدّث عن كل ما روينا عن الإمام علي﵇ على ضوء ما توصّل إليه الأدب في عصرنا من مناهج نقدية ونظريات أدبية لنرى بإنصاف ـ مع الكثير من القصور فينا ـ ما يحمله كلام أمير المؤمنين علي ﵇ من سعة الاطلاع ودقّة منفذ بصره في الشعر والأدب والعلوم.

المناهج النقدية المستوحاة من كلام الإمام ﵇

منهج الموازنة «النقد المُقارَن»

إنّ النقد المقارَن كان تياراً أدبياً عالجه الكثير من النقّاد في العصر العباسي، مثل أبي بكر الصولي والآمدي والقاضي الجرجاني، منتهجين به منهجاً جديداً في النقد؛ إذ لم يكونوا ليحكموا بتفضيل شاعر على شاعر إلاّ إذا اتّفقا في أمور تجعل الحكم عليهم ممكناً فإن اختلفا في تلك المؤشرات التي كان يطالب بها هؤلاء النقّاد، فلا نقد ولا مقارنة من بعد ذلك الاختلاف.

إنّ انتهاج هذا المذهب في تلك الفترة كان مما تقتضيه الضرورة، وذلك رغم وجود ثلاث مدارس نقدية آنذاك في الأدب العربي، وهي مدرسة اللغويين ومدرسة المتكلّمين ومدرسة الفلاسفة. والضرورة كانت تكمن في أن كل هذه المدارس الأدبية لم تكن تستطيع أن تلبّي حاجة الناقد الأدبي بتفضيل شاعر على آخر في ظل وجود الخصومة العنيفة بين الأدباء المجددين الذين يمثّلهم أبو تمام والمحافظين الذين يمثّلهم البحتري. فوُلِدَ تيار نقدي جديد

في الأدب العربي لينهي اختلاف وانقسام الأدباء والناس فيما بينهم أو لينتصر لبعض الشعراء على غيرهم فانتصر الصولي لأبي تمّام فوضع «أخبار أبي تمّام» وانتصر الآمدي للبحتري فوضع كتاب «الموازنة» الذي ضمّنه نظرات نقدية فيها اعتدال، وذوق أدبي رفيع، ومعرفة بالنفس البشرية. كما وضع عبد العزيز الجرجاني كتاب «الوساطة بين المتنبّي وخصومه» منتهجاً هذا المنهج النقدي الجديد. (الفاخوري، ١٣٨٥، ج١، ص٦٤٨). ولا نريد أن نقول إنّ هؤلاء النقّاد كانوا بعيدين عن الأخطاء، أو إنهم وصلوا إلى قمّة النقد الأدبي، لكنّهم خَطَوا بالنقد الأدبي خطوة كبيرة إلى الأمام، خطوة أثّرت على كلّ الأدباء والشعراء والنقّاد من بعدهم. وهذه الأخطاء وهذا النقص والقصور في نقدهم لم يكن ناشئاً عن منهجهم، بل كان ناشئاً عنهم؛ حيث إنّهم لم يجاوزا الموازنة الجزئية إلى الموازنة الكلية والأحكام الشاملة إلاّ قليلاً؛ لأنّ أغلب موازناتهم كانت تقوم على موازنة بيت ببيت، أو لفظ بلفظ، أو معنىً بمعنى، أو تشبيه بتشبيه، أو مقابلة بمقابلة، إلى غير ذلك من الأساليب البيانية (عتيق، في النقد الأدبي، ص٢٨٣).

إذن، إنّ هذا المنهج ذا قيمة كثيرة وتأثير كبير على مسيرة الأدب العربي رغم قصور فهم روّاده له وقلة براعتهم في تطبيقه. وكما قلنا، إنّ منهج الموازنة سليم تماماً، وما فيه من النقص يرجع إلى مطبّقيه على الشعر والأدب.

إنّ فكرة مقارنة آثار الأدبية مشروطة ببعض الشروط في تطبيقها مأخوذة من الأفكار الأدبية للإمام علي ﷺ؛ حيث أنّ روّادها لا محالة كانوا مطّلعين على كلام الإمام علي ﷺ وغيره من فصحاء العرب وخطبائها. إنّهم اتّخذوا هذا المنهج من قول أمير المؤمنين الذي سلف ذكره «كل شعرائكم محسن ولو جمعهم زمان واحد وغاية واحدة في القول لعلمنا أيهم أسبق إلى ذلك وكلهم قد أصاب الذي أراد وأحسن فيه» ومن قوله «إنّ القوم لم يجروا في حلبة واحدة تعرف القصبة عند قصبتها». كذلك فعل الآمدي في كتابه الموازنة، فإنّه بزعمه لم يفصح بتفضيل أحد على الآخر وأخذ يقارن بين قصيدة وقصيدة من شعر أبي تمّام والبحتري إذا اتّفقتا في الوزن والقافية والروي وبين معنى ومعنى (سلوم، ١٩٨٧، ص٢٠٧-٢٠٨). وهذا يدلّنا دلالة واضحة على تأثّره بكلام الإمام علي ﷺ إذ أراد الآمدي أن يجاري الشاعرين في حلبة واحدة وغاية واحدة.

إنّ الآمدي وغيره من النقّاد وإن تأثّروا بكلام الإمام علي ﷺ لكنّهم لم يفهموه كما يجب أن يفهم وكما أشرنا قبل هذا، إنّ الأمر انتهى بهم إلى محدودية في نقدهم، نتيجة لإهمالهم النظرة الكلية وانشغالهم بالجزئيات مثل الروي والقافية وغيرهما.

إنّ بعض النقّاد والكتّاب المعاصرين انتبهوا إلى جذور هذا المنهج وكتبوا عن منظّره الأوّل ورائده الحقيقي، الإمام علي ﷺ منهم عبد العزيز العتيق الذي يروى على كلام الإمام وهو «لو انّ الشعراء المتقدمين ضمهم زمان واحد ونصبت لهم راية فجروا معاً علمنا من السابق منهم» ويعلق عليه ويقول: «هذا هو منهج الموازنة الذي اعتمد عليه بعض النقّاد فيما بعد» (عتيق، تاريخالنقد الأدبي عند العرب، ص٨٢). كما أنّ العقّاد يشير إلى دقّة الإمام في اتحاد الأغراض الشعرية شرطاً للمفاضلة ويقول: «وهذا فيما نعتقد أول تقسيم لمقاييس الشعر على حسب المدارس والأغراض الشعرية بين العرب. فلا تكون المقابلة إلاّ بين أشباه وأمثال، ولا يكون التعميم بالتفضيل إلاّ على التغليب» (العقاد، ٢٠٠٧، ص١٢٤). وهذا إشارة ضمنية إلى أنّ اتحاد الأغراض والموضوعات والمذاهب هو أوّل شرط للمقارنة والموازنة، إذن لا يصحّ مثلاً أن نقارن شاعر ملحمي بشاعر غزل وغيرهما.

المنهج الفنّي

إنّ المنهج الفنّي من أقدم المناهج النقدية التي عالجها النقّاد منذ أقدم الأيام، وإن كانت معالجته محدودة وأخذت تتطوّر على مرّ العصور. إنّ الناقد في المنهج الفني، يواجه العمل الأدبي بالقواعد والأصول الفنية، ويتصّل به اتصالا مباشراً لمعرفة خصائصه الفنية وقيمته الذاتية، بصرف النظر عن صاحبه وعصره. إنّ الغاية في هذا المنهج هي البحث عن سرّ جمال العمل الأدبي والنظر في قيمه الشعورية والتعبيرية ومدى انطباقها على الأصول الفنية لنوع الأدب الذي ينتمي إليها عمله (عتيق، في النقد الأدبي، ص٢٧٧).

إنّ العرب من أقدم الأيام كانت تسعى إلى اتّخاذ هذا المنهج لنقدِ شعرِ شعرائها، لكن إنّ الثقافة الفكرية التي كانوا عليها في العصر الجاهلي لم تكن لستمح لهم أن يرقوا إلى أقصى درجاته، لكنّهم اهتمّوا به قدر ما استطاعوا معتمدين على فطرتهم الأدبية وذوقهم الفنّي.

الناقد الأدبي لا يستطيع أن ينجح في اتخاذ هذا المنهج، إلاّ إذا كان له ذوق فنّي سليم، يعتمد على الموهبة الفنية الفطرية، وعلى التجارب الشعورية الذاتية وعلى الإحاطة الواسعة

بالمأثور من الأدب والنقد. وهذا ما كان يمتلكه مولانا الإمام علي ﷺ إلى أقصى غاياته، بل هو في قمّة كلّ هذه المواصفات التي يجب أن يتحلّى بها الناقد الفنّي.

إنّ الإمام علي ﷺ نفسه كان شاعراً، وإن نُسِبَ إليه قدرٌ كبير من الشعر حُمِل فيه الكثير عليه ولكن كما يقول بعض الكتّاب، لابدّ أنّ بعض هذا الشعر صحيح النسبّ إليه خاصّة ما ينسَب إليه من الشعر جنّد السبك صادق العاطفة (هدارة، ١٩٩٥، ص٨٢١) أكثر مضامينه في الحكمة والعرفان والمواضيع الأدبية.

خصائص المنهج الفنّي عند الإمام علي ﷺ

عُرِفَ الإمام بالتقوى والإيمان والإخلاص في سبيل الله، وهو أوّل المؤمنين برسوله والقدوة بالأخلاق والعفّة. لكنّه عندما سُئِل عن أشعر الشعراء كما تقدّم، فضّل بعد الإصرار وبعد بعض الإيضاحات، الملك الضلّيل امرأ القيس. وقد يتساءَل متسائلٌ ما الذي دعا أمير المؤمنين، أسوة الأخلاق الكريمة والعفّة، إلى تفضيل امرئ القيس الشاعر الذي عرف بفسقه وفجوره؟ أليس في شعره من المجون والتهتّك والتشبيب بالنساء ووصفه غير الأخلاقي لهن ما يدعوا إلى نبذه وعدم قراءة شعره؟ الأمر الذي اضطر أباه إلى خلعه وطرده (الشرقاوي، ص٢٠٠). ألا ينبغي على أميرالمؤمنين علي ﷺ أن ينظر إلى شعره من الجانب الأخلاقي فقط؟

والجواب في الرد على هذه التساؤلات سهل للغاية برأيي؛ إذ إنّ الإمام هنا في مقام النقد الفني الذي يختلف، بل قد يتناقض مع النقد الملتزم. كما أنّ الإمام في هذا المقام نفسه لا يتخلّى عن النقد الملتزم ويطلب من الأديب الفنّان أن يكون ملتزماً في أدبه. فيجمع بذلك بين النقد الفني والنقد الملتزم جمعاً حسناً وبعيداً عن الإفراط والتفريط والقصور. وسنوضح هذا الأمر بتفضيل في كلامنا عن النقد الملتزم عند الإمام ﷺ.

إنّ في شعر امرئ القيس خصائص فنية تدعوا الإمام إلى تفضيله على غيره من الشعراء، وهو في نقده لا يتجاوز الحق فيغضى كما قلنا مثل أي ناقد فني عن صاحب الأثر وشخصيته وخصائصه الفردية، وينشغل بنقد الأثر وفنونه وجمالياته. فلو كان قد تطرّق الإمام في نقده إلى شخصية امرئ القيس ومجونه، وأهمل شعره وطاقاته الأدبية، لخالفه الصواب ولخرج عن الإنصاف. الأمر الذي مازال ولايزال يعاني منه النقد، وهو عدم الإنصاف والتحزّب لشاعر دون غيره.

عندما فضّل الإمام علي ﷺ امرأ القيس على غيره، علّل حكمه النقدي «بأنّه أسبقهم بادرة وأقلّهم نادرة». فالإمام فضلّه لأنّه كان مجدداً ومبتكراً في معانيه وفنونه، وقد سبق الشعراء إلى أمور فنية لم يكونوا يعرفونها، وقد أضفى على ما عند المتقدمين من الفنون والمعاني، صبغة جديدة. إنه لم يكرر كالببغاء ما ردّده الشعراء قبله. كما إنّ الإمام ينظر إلى بواعث الشاعر وعنصر العاطفة والإحساس، عندما يقول: «فالذي لم يقل عن رغبه ولا رهبة». إذ لو كان الشعر ناشئاً عن عواطف غير صادقة تجعل الشاعر متكلّفاً في صياغته، بعيداً عن التأثير العميق في نفوس مخاطبيه ومستعميه.

ويشهد الكثير من الباحثين لأمرئ القيس بهذه الأمور؛ إذ يعدّه بعضهم أباً للشعر الجاهلي من حيث أنّه أعطى للقصيدة العربية نسقها النهائي، وهو الذي نهج للشعراء بعده الحديث في بكاء الديار والغزل القصصي، كما أظهر ضروباً من المهارة الفنية. وإنّ ألفاظه متلائمة ومنسابة ومتناسبة مع موسيقى قصيدته. وقد ألهم فكرة التشبيه والجمال التعبيري للشعراء بعده (ضيف، ١٤٢٧ ، ج١، صص٢٦١-٢٦٥). وهذا ما جعل الجميع يعترف بريادته الأدبية. وقد ضرب المثل بمعلقته وقيل «أشهر من قفا نبك».

إنّ الكثير من النقاد القدماء والمعاصرين نظروا إلى شعر امرئ القيس من منظر الإمام علي ﷺ واخذوا نظرتهم من أقواله. وهذا بديع الزمان الهمذاني يقول عن شعر امرئ القيس نقداً فنياً في مقامته القريضية «هو أول من وقف بالديار وعرصاتها، واغتدى والطير في وكناتها، ووصف الخيل بصفاتها، ولم يقل الشعر كاسباً ولم يقل القول راغباً ففضل من تفتّق للحيلة لسانه وانتجع للرغبة بنانه» (حسني، ٢٠٠٣ ، ص١٣).

إذن نستطيع أن نلخّص تفضيل الإمام الفني لامرئ القيس بهذه الأمور: ١. تجديده وسبقه إلى المعاني المبتكرة وعدم انجراره وراء المتقدّمين. ٢. الصدق الفني الذي يعطي لقصيدته انسياباً يلائم بين الألفاظ والمعاني. ٣. إلباسه المعاني التقليدية صوراً جميلة بارعة بتصرّفه في فنون القول كالتشبيه. ٥. ندور فنونه ومعانيه الشعرية مقارنة بغيره من الشعراء حيث قال «أقلّهم بادرة» وغير ذلك من الأمور.

ويوافق الرسولُ الأكرم ﷺ أمير المؤمنين ﷺ بتفضيله امرأ القيس على غيره من وجهة نظر فنية؛ إذ ذُكرَ امرؤ القيس عنده فقال: «هو قائدهم وصاحب لوائهم» (الخفاجي، ١٩٩٥،

ص٢٤). كما فضّله لبيد وحسان بن ثابت على جميع الشعراء (العاكوب، ١٩٩٨، ص١٥٠) وغيرهم من النقاد وأصحاب الطبقات والأدباء.

النقد الملتزم

إنّ النقد الملتزم يطالب الأديب والشاعر أن يخرج بأدبه وفنّه عن حدود الطبيعة البشرية، وأن يلتزم بمجتمعه وأخلاقياته ودينه، فلا يجعل فنّه هاوية تجرّ مجتمعه إلى الانحطاط وأن لا يعطل ضميره الأخلاقي فيجعل فنّه خارج إطار الإنسانية.

إنّ مذهب الفن للفنّ لا يأبى بالأخلاق، بل يريد من الفنّان أن لا يحدّ فنه ولا ينقص من جماله بالتزامه بأمور ليس هي من الفنّ في شيءٍ، وانما هي خارج إطار الفنّ، فلا يمنع الفنّان أن يصوّر منظراً لا أخلاقي مادام هناك الجمال هو الحاكم. لكن النقد الملتزم يطالب الأديب بعكس هذا كلّه. إنّ الفنّ يجب أن يكون ذا غاية وهدف في الحياة. فانّه لم يكن من الفنّ في شيءٍ مالم ينظم حياتنا ويبعثنا على فعل الخير، والحُبّ والوئام. وليس مجرد بعثة المتعة الفنية هي التي تجعل الفنّ ذا قيمة بل يجب على الفنّ أن يسعد حياتنا ويعطينا أهدافاً نسعى إلى تحقيقها. إنّ الإمام علي ﷺ كما قلنا عندما حكم لامرئ القيس بالأفضلية وبأنّه أشعر الشعراء، كان في مقام النقد الفني، لكنّه لم ينس النقد الملتزم. إنّ الإمام وإن راقه فنّ امرئ القيس ولم يظلمه لغوايته، فقد عبرّ عنه بالضلّيل. فإنما سمّي امرأ القيس ضلّيلاً لما يعلن به في شعره من الفسق. والضلّيل للكثير الشراب كالشريب والخّمير والسكير للكثير الشرب وإدمان الخمر والسكر والفسق (ابن ابي‌الحديد، ١٩٨٩، ج٤، ص٥٠٣).

فكما نرى لا يرتضي الإمام أن يكون الفنّ ضدّ الدين والأخلاق، لكنّه في الوقت نفسه لا يرضى بأن يكون الفنّ خالياً من الجمال الفنّي والمتعة، فيريد أن تُصاغ المعاني الملتزمة بصورة فنية جميلة رائعة.

ونحن نستطيع أن نفهم هذه النظرة التوفيقية في نقد رسول الله ﷺ للشعر بصورة واضحة. إذ نراه في نفس الوقت الذي يفضّل امرأ القيس، يذمّه ويحطّ من شأنه، حيث يقول: «إنّه أشعر الشعراء وقائدهم إلى النار» (عتيق، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص٥١).

ولا غرو بذلك إذ إنّ الإمام علي ﷺ كان أقرب الناس إلى النبي وأشبههم تفكيراً به. وإنّهما قبل أن يكونا أديبين إنما هما إماما هدى وأكثر الناس إيماناً بالله، إذ كان الإمام علي ﷺ أول الناس إيماناً وتصديقاً برسالة النبي. فما ينبغي منهما إلاّ أن يجعلا الفن والشعر في خدمة الأخلاق والدين والكرامة الإنسانية، لكنّهما لم ينسيا اعتدال الدين الإسلامي، فلم يقبلا الفنّ تماماً بكل ما فيه من عيوب، ولم يطرداه تماماً. بل جعلاه أمراً بين الأمرين. فالفن ما لم يكن في خدمة الدين والأخلاق فهو مطرود، والأخلاق والدين ما لم يصاغا بتعبير جميل ورائق فليسا من الفنّ في شيءٍ. وهذه أفضل النظرات النقدية وأصوبها وأبعدها عن الخطأ والتطرّف؛ لأن مصدرها القرآن الكريم، حيث يقول عن الشعراء: «والشعراء يتبعهم الغاون ★ ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون ★ وأنهم يقولون ما لا يفعلون ★ إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلبٍ ينقلبون» (الشعراء: ٢٢٥-٢٢٧).

المنهج التاريخي

النقد التاريخي منهج لتفسير الأدب وتعليل ظواهره في ظلّ الأحداث السياسية والاجتماعية؛ لأنّ الأديب لا يستطيع أن ينفك عن تأثير البيئة، كما إنّ المجتمع والبيئة يتأثّرا بالعمل الأدبي. إن هذا المنهج يبحث أيضاً في الأطوار التاريخية التي مرّ بها كلّ فنّ من الفنون الأدبية (عتيق، فيالنقد الأدبي، ص٢٨٨)، وقد اهتمّ الكثير من النقّاد بهذا المنهج، لما يكشف عنه من حقائق دقيقة في عملية إنشاء النصّ الأدبي.

إنّ الأديب كما كانت تقول العرب ابن بيئته، ولا يستطيع أن يفوق زمانه مهما كان عظيماً؛ لأنّه كأي بشر يعيش في مجتمع يجبره أن يتعاطى معه وينفعل به. إنّ الوقائع التاريخية لا يمكن فصلها عن سياقها التاريخي والاجتماعي، أو تفسيرها بعيداً عن مواقف الحياة الثقافية (حجازي، ٢٠٠٧، ص١٩٠). إن كثيراً من الشعراء والأدباء لو كانوا في زمنٍ غير أزمنتهم أو في مكانٍ وبيئة غير أمكنتهم وبيئاتهم، لكانوا غير الذي كانوا. إنّ هذه قاعدة عامّة في طبيعة البشر، ولهذا نرى أنّ الحركات السياسية والاجتماعية تكون ذات تأثير مباشر على أدب الأمم التي تحدث فيها. إنّ الأمم تختلف في آدابها أو حتّى في كلّ عصر من عصور آدابها لهذا السبب البسيط. من أوضح الأمثلة على ذلك نستطيع أن نشير إلى ظهور

الإسلام وإلى نهضة الترجمة في عهد المأمون وكذلك النهضة الأدبية الحديثة في مصر. فقد أثّرت كلّ منها بوضوح على الأدب العربي تأثيراً واضحاً وصبغتهُ بصبغة جديدة، وغيرت روحه وأساليبه وأدخلت فيه مصطلحات جديدة ملائمة مع روح ذلك العصر التي تقع فيه.

إنّ الإمام علياً ﷺ لا يغفل عنصر الزمان في نقده للشعر، ويقول كما تقدّم: «ولو ضمّهم زمانٌ واحد وغاية واحدة ومذهب واحد في القول لعلمنا أيهم أسبق إلى ذلك». وهذا يدلُّ على فطنة وذكاء الإمام علي ﷺ وعلمه النافذ بالنقد. إنّ الإمام يرفض أن يحكم في نقده على أفضلية أحد الشعراء إلاّ مكرهاً، مادام الشعراء مختلفون في أزمانهم، فيجعل نقده مشروطاً بأن يضمّهم زمانٌ واحد؛ إذ إنّ الأحداث التاريخية قد تهيّئُ لشاعرٍ من الشعراء ما لم يهيأُ لأحد سبقه في زمنٍ من الأزمان، كما أنّه قد يتاح لمن يأتون بعده من الشعراء ما لا يتاح له. على سبيل المثال إنّ من الظلم أن نقارن شعر امرئ القيس والنابغة والأعشى بشعر السياب وأدونيس ومحمود درويش؛ لأنهم لا يجمعهم زمن واحدٌ. إنّ كثيراً من القدماء الذين نبغوا في الشعر، لو كانوا في غير عصرهم لكانوا غير الذي نعرفه عنهم. وحتّى في عصرنا الحديث، قد تهيأت لبعض الشعراء معرفة ثقافات الأمم الأخرى وآدابها، ودراسة الفروع العلمية الجديدة التي لم تتهيأ لغيرهم، ولذلك اختلف شعرهم وأدبهم كشوقي الذي درس في أروبا وتعلم آدابها وحافظ إبراهيم الذي لم تتهيا له هذه الظروف.

على أي حال إنّ الإمام علياً ﷺ كان عالماً بتأثير العنصر التاريخي والثقافي في تكوين شاعرية الشاعر وأدبه، فرفض أن يساوي في حكمه بين الشعراء الذين عاشوا في أوائل العصر الجاهلي وبين الشعراء المتأخرين منهم، وبين الشعراء الذين أدركوا الإسلام وتأثّروا بثقافته وبأساليب القرآن وتعابيره، والتغييرات التي حصلت فيما بين تلك الأزمان إيجابية كانت أو سلبية، بحجّة أنهم لم يجمعهم زمان واحد. ولا ترى من سبق الإمام ﷺ في وضع هذا العنصر واشتراطه كجزءٍ لا يتجزّأ من عناصر نقد الشعر. وهذا هو الذي تأملته العرب فيما بعد واتخذوه منهجاً في نقدهم؛ إذ نرى محمد بن سلاّم الجمحي أوّل نقّاد العرب الذين تطرّقوا إليه في قضية الانتحال في الشعر الجاهلي، فرفض بعضه؛ لأنّه يخالف فكر العرب وعقائدهم وما كانوا عليه من ثقافة، أي إنّه غير مصبوغ بصبغة جاهلية؛ إذ إنّ كثيراً من الوضّاع حاولوا أن ينحلوا شعراً جاهلياً، لكنّهم غفلوا عن العنصر التاريخي، فصبغوا أشعارهم بصبغة تختلف عمّا كانت العرب عليه آنذاك.

المنهج الاجتماعي

تقدّم فيما سبق أنّ الأديب، ابن بيئته، وأنّه لا يستطيع أن يتخلّص من تأثيرها عليه، بل لعله من الخير أن لا يحاول التخلّص منها؛ إذ لو تخلّص منها لكان شعره غير ذاته؛ لأنّ الأدب مرآة يجب أن يعكس الأديب وذاته ومجتمعه وبيئته. وبعبارة أوضح إنّ الأدب فن التعبير عن التجارب البشرية وفق شروط أدبية معينة (حجازي، ٢٠٠٧ ، ص١٣٩). ولاشك أنّ لكلّ تجربة بشرية عنصر زماني وعنصر مكاني؛ إذ إنّ كل تجربة تقع في زمن محدّد ومكان محدد. وهذا هو الرابط بين المنهج التاريخي والمنهج الاجتماعي. ولهذا يعبَّرُ بعض الأحيان عن الناس ومجتمعاتهم بالزمان. كما يفعل أمير المؤمنين نفسُهُ هذا الأمر، ويعبّر عن المجتمع بالزمن، حيث يصف حالة مجتمعه وما أصبح عليه الناس من لؤم وضعف في الدين والإيمان ويقول: «أيّها الناس! إنّا قد أصبحنا في دهر عندود وزمن كنود يعدُّ فيه المحسنُ مسيئاً ويزداد الظالم فيه عتوّاً، لا ننتفع بما علمنا ولا نسأل عمّا جهلنا، ولا نتخوّف قارعة حتّى تحلّ بنا» (صالح، ١٤٢٢، ص٧٢).

إنّ ترابط الأزمنة والمجتمعات أمر لا يحتاج إلى الاستدلال والإثبات لوضوحه، فالمجتمعات موثوقة بالتاريخ وتتغير كلّما تغيرت الظروف التأريخية. إنّ الإمام علياً ﷺ كان ولعلمه بالشعر يدرك تأثير المجتمعات على شعر الشاعر؛ لأنّه كان يرى برأي العين اختلاف أشعار الشعراء حسب اختلاف مجتمعاتهم وبيئاتهم واختلاف ظروفهم المعيشية. وأثّر ذلك ظاهر حتّى في شعر شعراء الجاهلية كالذوق الحضري الذي سيطر على شعر الأعشى إثر اتصاله بالمدن والحضارات، أو الرقّة التي ظهرت في شعر اليمانيين الذين كانوا يسكنون في أرض خصبة وكانت قد قامت حضارات عديدة وحكومات وثقافات مختلفة في أرضهم.

لهذا نرى الإمام يشترط عنصر الزمان وصلته بالمجتمع كعنصر أساسي للنقد. كما أنّ الإمام يتكلم عن الغاية، وهي عند الإمام لها معناها الخاص، كما يقول الشريف الرضي في تعليقه على قول الإمام ﷺ «والسبقة الجنّة والغاية النار» فإنّ السبقة مقترنة بالجنّة؛ لأنّ الاستباق إنما يكون إلى أمر محبوب وغرض مطلوب وهذه صفة الجنّة، وقد قرن الإمام الغاية بالنار؛ لأنّ الغاية قد ينتهي إليها من لا يسرّه الانتهاء إليها ومن يسرُّهُ ذلك (صالح، ١٤٢٢، صص٦٧-٦٩). ونستطيع أن نتصوّر لكلام الإمام عدّة غايات، عندما يقول: «زمان واحد

وغاية واحدة». منها الغايات الاجتماعية والغايات النفسية والغايات الدينية والفكرية وغير ذلك من الغايات.

إنّ للأديب غايات هو يسعى لتحقيقها وغايات أخرى هي تفرض نفسَها عليه، إنّها الغايات الاجتماعية التي يحترمها المجتمع، بل قد يقدّسها. مثلاً فإنّ فرق شعراء الصعاليك وفرق شعراء القبائل هي الغايات، وإنّ الصعاليك طردوا وخلعوا من مجتمعاتهم؛ لأنّهم لا يمثّلون غاياتٍ مجتمعاتهم، ولهذا نرى أدباً مختلفاً ترك تأثيره حتّى على صيغهم التعبيرية، فعندما نرى شاعر القبيلة يتكلم بصيغة المتكلم مع الغير نرى الشاعر الصعلوي يتكلّم بصيغة المتكلم وحده.

إذن، إنّ الإمام علياً ﷺ يرى أنّ الأديب متأثّر جدّاً بمجتمعه؛ لأن الأدب مرآة الشاعر ومجتمعه، وقد عبّر الإمام ﷺ عن هذا المنهج بمقولتين، الأولى مقولة الزمن وكما قلنا إنّ الإمام يعبّر بالزمن عن المجتمع والناس، والثانية هي الغاية؛ إذ إنّ كل أديب له غايات منها غايات تُفرض عليه ومنها غايات يلزمها هو لنفسه.

المنهج النفسي

إنّ المنهج النفسي هو منهج حديث في النقد الأدبي يحاول أن يقرأ الأديب قراءة تمتدُّ خلف سطحه الظاهري وتكشف عمّا في نفسه من الأمور التي تؤثّر في أدبه، وقد يجهلها الأديب بعينه، لكن تظهر في كلامه، كما يقول الإمام علياً ﷺ «ما أضمر أحدٌ في نفسه شيئاً إلاّ ظهر في فلتات لسانه أو صفحات وجهه» (صالح، ١٤٢٢، ص٦٠٥). وقد وضع فرويد الأسس العامّة لهذا النقد (حجازي، ٢٠٠٧، ص١٠٩)؛ لأنّه وتلامذته كانوا يرون أنّ الأديب يندفع دفعة لاشعورية لتحقيق رغباته المكبوتة في نفسه، فاتخذوا الأدب لقراءة لاشعور الأديب وتأثيرها على النص الأدبي.

والمنهج النفسي عند فرويد، نظراً إلى صعوبة فهم الكنه البشري، لا يمثّل إلاّ مذهباً واحداً من مذاهب علم النفس، وقد يكون يعتريه النقص في كثير من نواحيه. كما أنه يحتاج اختصاصاً كثيراً في مجال علم النفس لتطبيقه. ومع ذلك، قد يخطأ في كثيرٍ من الأحيان كما قلنا، لغموض كنه النفس البشرية وللنقص النسبّي الذي يلازم دائماً العلوم البشرية.

إنّ المنهج النفسي عند الإمام علي ﷺ يختلف عن المنهج النفسي عند فرويد، وأعتقد أن أكثر نقاد الأدب لا يميلون إلى مذهب فرويد في النقد النفسي؛ لأنّ فرويد يبحث عن ذات الأديب وأمراضه وهم يبحثون عن أدب الأديب وذاته الأدبية.

إن منهج الإمام ﷺ النفسي لا يسعى لدراسة ذات الأديب؛ لكنّه يريد أن يدرس النصّ الأدبي في ظلّه. إنّ الإمام علياً ﷺ لا يعتقد كغيره من النقّاد المتقدّمين بنظرية شياطين الشعر؛ لأنّه يتكلم عن الرغبة والرهبة في نفس منشي الأدب؛ إذ يقول: «فالذي لم يقل عن رغبة ولا رهبة» فيرى للأدب منشأً نفسياً يتأثّر مباشرة بالنفس البشرية، فإذا كان هناك أمر يدعو للخروج عن دواعي النفس الأدبية نقصت القيمة الأدبية للنص كما يصرّح أمير المومنين بذلك، ويقول أنّ امرأ القيس فاق أقرانه؛ لأنه لم يقل عن رغبة وطمع ولا عن رهبة وخوف. وليس معنى ذلك أنّ الرغبة والرهبة ليست من العواطف الأدبية، بل على العكس من ذلك تماماً، فإنّ بعض الشعراء قد ينتجون أفضل أشعارهم عند الرغبة أو الرهبة. وقد عبّر عن ذلك بعض القدماء بقولهم: «أشعر الناس امرؤ القيس إذا ركب، وزهير إذا رَغِبَ، والنابغة إذا رهب، وعنترة إذا غَضِبَ» وقولهم: «إنما يبنى الشعر على الرغبة والرهبة والطرب والغضب» (الخفاجي، ١٩٩٥، ص٤٥). ولكن الإمام يريدُ ذلك بشعر امرئ القيس نفسه، وهذا كما رأينا جعل بعض القدماء يعبّروا عن امرئ القيس بأنّه أشعر الناس إذا ركب ولم يقولوا إذا رغب كما قالوا عن زهير مثلاً.

إنّ الإمام علياً في نقده النفسي يصل من خلال أشعار امرئ القيس إلى ذاته ونفسياته ويرى أنّه لم يقل عن رغبة ولا رهبة. فالإمام ﷺ يرى ذات الشاعر متمثلة وحاضرة في شعره. إنّ امرأ القيس كان قد توفّي قبل الإمام بمائة وخمسين سنة تقريباً وأنّ الإمام ﷺ لم يره ولم يجالسه، لكنّه يعرفه جيداً من خلال أشعاره، فينفذ في معرفته هذه إلى نفسياته وطواياها.

النقد اللغوي

إننا عندما نتأمل الأقوال النقدية عند الإمام علي ﷺ لا نراه يتطرّق إلى اللغة والألفاظ في نقده، وكأنّما لم يعرها أي اهتمام. لكن في الحقيقة إنّ الإمام علياً ﷺ يشير إليها من حيث لا يشير إليها، فإنّ الذي يعرف حياة الإمام ﷺ يعلم أنّه لم يكن هناك من علماء اللغة من

خدم اللغة العربية كما خدمها أمير المؤمنين علي ﷺ إذ أعطاها صبغة علمية، فكان أوّل من وضع قواعدها ونحوها (زاهد، ١٩٨٦، ص٢٩). كما تدين اللغة العربية له ولأصحابه مثل أبي الأسود الدؤلي بأمور أخرى، مثل فنّ كتابتها إذ أصلحوا نظامه ووضعوا لأوّل مرّة الحركات الإعرابية، مستخدمين نظام النقط (زاهد، ١٩٨٦، ص٤٨).

إذن، إن للإمام علي ﷺ فضلاً على اللغة العربية، لم يكن لأحد غيره مثله؛ لأنّ الإمام هو واضع علم النحو، وقد سار النحاة على منهج الإمام علي ﷺ ولم يبدعوا علم النحو بأنفسهم. وكان وضع علم النحو على يدالإمام ﷺ مقارناً لشيوع اللحن في اللغة إثر ازدياد رقعة الدولة الإسلامية، فحاربه الإمام بالنحو.

إن كان كل هذا من الإمام في مجال اللغة، فلماذا لا يشار إليها ولا تُجعل معياراً ثابتاً في نقد الشعر؟ وسنجيب على هذا السؤال لكن بعد إيضاحات دقيقة تاريخية، وهي أنّ الذي بين أيدينا من كلام الإمام في النقد ما هو إلاّ نُتَفاً قليلة من كلام الإمام. فقد يكون هناك الكثير من الكلام الذي لم يصل إلينا أو وصل ولم نطّلع عليه نحن. وإليكم تفسير هذا القول الذي أشرنا إليه قبل هذا، وقلنا أنّ الإمام علياً ﷺ يشير إلى اللغة في النقد من حيث لا يشير إليها. ومعنى ذلك أنّ الإمام يسلّم بوجود اللغة الصحيحة والخالية من الخطأ واللفظ الجميل والأنيق، ويراه شرطاً لازماً في الشعر والأدب كما فهمنا ذلك من حياته العلمية والأدبية، ولا يحقّ لأحدٍ أن يساوم بشأنه. إذ لو كانت اللغة ضعيفة وغير صحيحة لفسدت المعاني ولضعفت وخرجت عن الجمال والشعرية. إنّ اللغة يجب أن تكون صحيحة وبعيدة عن الخطأ والثقل حتّى في حياتنا اليومية فما بالك بالشعر والأدب.

كما أنّ الواقع التاريخي للعصر الجاهلي والعصر الاسلامي يدعونا إلى القول بأنّ الإمام علي ﷺ لم يتكلّم عن اللغة في نقده؛ لأنّها الشرط الأساسي واللازم للأدب، وباختلالها يختلّ الأدب. إنّ الواقع التاريخي يشهد بأنّ الضعف اللغوي كان يواجه سخرية واستهزاء جلّ الناس حتّى العوام والأطفال منهم، كما فعل طرفة وكان يومذاك طفلاً، بخاله المتلمس عندما سمعه ينعت جملَهُ بالصيعرية فقال طرفة مستهزئاً: «لقد استنوق الجمل»؛ لأنّ الصيعرية من صفات الجمل (عتيق، تاريخ النقد الأدبي، صص٢٤-٢٥).

كما أنّ الإمام ﷺ حكم لصالح امرئ القيس الذي كان يعرَفُ باهتمامه بلغته الشعرية ويعني بالتلاؤم بين ألفاظه. فقلّما تلقانا في شعره لفظه نابية في حروفها (ضيف، ١٤٢٧، ج١، ص٢٦٥). وقد عُرِفَ أيضاً بعنايته الواضحة بموسيقى شعره؛ إذ كان يختار أجزل الألفاظ وأقواها على إصدار النغم الملائم مع أحاسيسه الشعرية وانفعالاته الأدبية. إنّ الإمام علياً ﷺ بحكمه لامرئ القيس يهتمّ بهذا الجانب من النقد. إذ إنّ بعض شعراء العرب كانوا يتّخذون مذهب الصنعة في اختيار كلماتهم وألفاظهم الشعرية مثل المدرسة الأوسية التي كانت تنتج شعر الحولي المحكك، فكان شعراؤها يمضون عاماً كاملاً في تنتقيح ألفاظه وأبياته. وهناك أيضاً شاهد تاريخي آخر يدلّنا إلى أن سكوت الإمام ﷺ عن أهمية اللغة في النقد، ليس لإهماله إياها، بل جعلها عنصراً أساسياً وشرطاً لازماً في النقد. والشاهد هو الأديب الخرّيت عمرو بن بحر الجاحظ؛ إذ إنّه على مذهب اللفظيين في الشعر. فعندما نقول إنّ الجاحظ لفظي، لا نريد أن نقول إنّ الشعر عنده يجب أن يكون محشواً بالألفاظ دون المعاني، بل إنّه يسلّم بوجود المعاني السليمة في الشعر، ولهذا لا يذكرها ويجعل اهتمامه كاملاً على قضية اللفظ (سلوم، ١٩٨٦، ص١٩). كذلك أمر النقد اللغوي عند الإمام، فإنّه على العكس من الجاحظ يسلّم بوجود اللفظ ويركز على المعاني.

المذهب التكاملي

المذهب التكاملي مذهب يريد أن يتخلّى عن المحدودية في إصدار أحكامه النقدية، ولهذا يحاول أن ينظر إلى العمل الأدبي بنظرة واسعة تدرسه من مناحٍ شتّى. ولهذا إنّ هذا المذهب يتألّف من المنهج الفني والتاريخي والنفسي ويستخدمها مجتمعة متداخلة كلّما استدعى النقد ذلك. وهو منهج مرن لا يقف عند حدود معينة، وإنما يأخذ من كل منهجٍ ما يراه معيناً على إصدار أحكام متكاملة على الأعمال الأدبية من جميع جوانبها (عتيق، في النقد الآدبي، ص٣٨٠).

استخدام هذا المذهب يحتاج إلى براعة فنية وسعة اطّلاع؛ لأنّه يجمع بين مناهج مختلفة، ولهذا يحتاج إلى الاطلاع الكامل على تلك المناهج، كما يحتاج إلى مرونة في الناقد تؤهله إلى استخدام كلٍ من المناهج في محله، متناسباً مع المناهج الأخرى ومتناسباً مع الظروف التاريخية والاجتماعية والأدبية لكلّ أديب من الأدباء. ولهذا نرى أنّه لا يتسنّى لكلٍّ

أحدٍ أن يطبّقه، خاصّة في الزمن القديم الذي لم يكن النقاد فيه ذوي ثقافة فكرية ومهارة نقدية كثيرة في تطبيق نقدهم.

ألا إنّ الإمام علياً ﷺ جمع في نقده بين كل تلك المناهج، دون أي صعوبة وبإيجاز يفوق التصوّر البشري. فالإمام ﷺ أصدر بعد الإصرار والإكراه، حكمه النقدي بتفضيل امرئ القيس، وتكلّم عن المنهج الفنّي، والتاريخي، والنفسي، ومن ثمّ أصدر حكمه. إنّ الإمام ﷺ اهتم في نقده بكل هذه المناهج وزيادة عليها؛ إذ تكلم عن الاختلاف التاريخي أو الزمني فيما بين الشعراء في نقده التاريخي، وتكلم عن سبق امرئ القيس إلى بعض الفنون وحسن معانيه وعدم تقليده للآخرين في أحاسيسه الشعرية في نقده الفني، كما تكلم في نقده النفسي عن نفسيات الشاعر الذي لم يقل برأي الإمام ﷺ عن رغبة ولا رهبة. إنه ولا شك مذهب تكاملي في النقد، سبق إليه الإمام علي ﷺ جميع النقّاد من عرب ومن عجم.

النقد التنظيري

إنّ التنظير يختلف عن التطبيق في كلّ مجال من مجالات العلم والفنّ. في كثير من الأحيان لم تسمح الظروف للمنظّرين أن يطبقوا نظرياتهم، سواء في السياسة أو الاجتماع أو الأدب أو غيرها من المجالات. وفي بعض الأحيان استطاع بعض المنظّرين أن يطبّقوا أفكارهم، ففشل البعض منهم ونجح البعض الآخر في ذلك التطبيق. إنّ الكثير من الأدباء لم يعرفوا بنقدهم التطبيقي، لكنّهم عرفوا بنقدهم التنظيري، مثل ابن سينا والفارابي وأبو حيان التوحيدي وغيرهم (إحسان عباس، ١٩٨٦، ص٢١٤).

إنّ فشل أو نجاح التطبيق لا يدلّ بالضرورة على أخطاءهم الفكرية فقد تكون هناك مؤثرات أخرى تحول بينهم وبين التطبيق التامّ لأفكارهم أو تؤثرُ في إفشالها. إذن، إنّ التنظير يختلف عن التطبيق اختلافاً تامّاً وإنّهما وإن اجتمعا في بعض الأحيان، لكنّهما قد افترقا في كثير من الأحيان.

إنّ الإمام علياً ﷺ ممّا تقدّم من نقده، وأوّل أكبر منظّر أدبي في تاريخ الأدب العربّي وإن كلامه في النقد الأدبي، مع شدّة إيجازه يحمل ما لا يحمل غيره من النظرات النقدية التي تدلُّ على سعة علم الإمام بالأدب والنقد، وتحلّه محلاً رفيعاً في الأدب العالمي وليس في الأدب العربي فقط.

المذهب التطبيقي

قلنا إنّ التنظير يختلف عن التطبيق وإنّ الكثير من المنظّرين لم يطبقّوا نظرياتهم أو لم يفحلوا في تطبيقها. لكنّ الإمام علياً ﷺ لم يكتف بالتنظير فاتّجه إلى التطبيق عندما حكم بتفضيل امرئ القيس حُكماً معلّلاً.

وقد أفلح الإمام علي ﷺ في إصدار حكمه؛ إذ جاء حكمه صحيحاً وذا قيمة نقدية كبيرة. يشهد بذلك جلّ الأدباء والنّقاد العرب الكبار مثل لبيدبن ربيعة العامري، إذ يرى امرأ القيس أشعر الشعراء (قدامة بن جعفر، ص٢٢)، ومثل رسول الله وحسّان، إذ حكم حسّان بنفس الحكم وصدّقه رسولُ الله (ابن أبي الحديد، ج٤، ص٥٣). كما حكم غيرهم من أصحاب الطبقات والشعراء والأدباء المتأخرين.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١. ابن أبي الحديد (١٩٨٩). *شرح نهج البلاغة*. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

٢. ابن جعفر، قدامة (١٩٧٨). *نقد الشعر*. تعليق وتحقيق عبد المنعم الخفاجي، القاهرة: المكتبة الأزهرية.

٣. الحسين، قصي (د ت). *النقد الأدبي ومدارسه عند العرب*. بيروت: دار ومكتبة الهلال.

٤. حجازي، سمير سعيد (٢٠٠٧). *مناهج النقد الأدبي المعاصر بين النظرية والتطبيق*. القاهرة: دار الآفاق العربية.

٥. زاهد، زهير غازي (١٩٨٦). *في التفكير النحوي عند العرب*. بيروت: عالم الكتب.

٦. الخفاجي، محمد عبد المنعم (١٩٩٥). *مدارس النقد الأدبي الحديث*. ط٢، بيروت: دار المصرية اللبنانية.

٧. سلوم، داود (١٩٨٧). *مقالات في النقد والأدب*. ط٢، بيروت: عالم الكتب.

٨. ـــــــــــ (١٩٨٦). *النقد المنهجي عند الجاحظ*. ط٢، بيروت: عالم الكتب.

٩. الشرقاوي، عفت (د ت). *دروس ونصوص في الأدب العربي*. بيروت: دار النهضة.

١٠. صالح، صبحي (١٤٢٢ هـ). *نهج‌البلاغة*. ط٢، قم: دار الهجرة.

١١. ضيف، شوقي (١٤٢٧ هـ). *تاريخ الأدب العربي*. ط٢، قم: ذوي القربى.

١٢. عباس، إحسان (١٩٨٦). *تاريخ النقد الأدبي عند العرب*. ط٥، بيروت: دار الثقافة.

١٣. العاكوب، عيسى علي (١٩٩٨). *التفكير النحوي عند العرب*. ط٦، بيروت: دار الفكر المعاصر.

١٤. عتيق، عبد العزيز (د ت). *تاريخ النقد الأدبي عند العرب*. بيروت: دار النهضة العربية.

١٥. ـــــــــــــــ (د ت). *في النقد الأدبي*. بيروت: دار النهضة العربية.

١٦. العقاد، محمود عباس (٢٠٠٧). *عبقرية الإمام علي*. ط٢، بيروت: المكتبة العصرية.

١٧. الفاخوري، حنا (١٣٨٥ ش). *الجامع في تاريخ الأدب العربي*. ط٣، قم: ذوي القربى.

١٨. قصاب، وليد (٢٠٠٥). *النقد العربي القديم*. دمشق: دار الفكر.

١٩. مصطفى، محمد حسني (٢٠٠٣). *مقامات بديع الزمان الهمذاني*. دمشق: دار القلم العربي.

٢٠. هدارة، محمد مصطفي (١٩٩٥). *الشعر في صدر الإسلام والعصر الأموي*. بيروت: دار النهضة العربية.